

## بين الجمال والجمالية

(Between the Beauty and the Aesthetics)

د. بن عيسى فضيلة\*

جامعة وهران 2 – محمد بن احمد- وهران

Email : saramer22@yahoo.fr

تاريخ الوصول: 2021-05-26 تاريخ القبول: 2022-04-10 تاريخ النشر: 2022-05-13

## ملخص:

إن الجمال قيمة حضارية في غاية الأهمية، والإنسان لا يستطيع أن يستمتع بالحياة، ويشعر بلذتها بمعزل عن الإحساس بالجمال، فهو بفطرته يدرك جمال الكون... السماء وما فيها، والأرض وما عليها، والطبيعة وما تحويه، بل النفس البشرية ومما تتركب... كل شيء بثه الله بقدر يسير في مسارات دقيقة ومحكمة، تجانس وتناسق، تناغم، وتوازن، توافق وتنوع، نظام متناهي الدقة يثير الحيرة، ويبعث على الدهشة، يفرض بحق أن نفكر في إبداع خالق هذا الجمال! فهل من سبيل إلى تعريف "الجمال" وضبط مفهومه والإمام بحيثياته؟ وما علاقته بالجمالية؟

هذا سنحاول الوقوف عنده في هذا المقال، مفهوم الجمال من الناحية اللغوية والاصطلاحية بشكل عام وتداخله مع بعض المصطلحات، والكشف عن علاقته بالجمالية أو الإستيقا.

الكلمات المفتاحية: (الجمال، الجمالية، الجميل، العمل الفني، التجربة الفنية)

**Abstract:**

Beauty is a very important cultural value, and a human being cannot enjoy life and feel its pleasure in isolation from the sense of beauty, because by his instinct he realizes the beauty of the universe... the sky and what is in it, the earth and what is on it, nature and what it contains, but the human soul and what it composes... Everything was broadcast by God with measure that walks in accurate and precise tracks, homogeneity and consistency, harmony, balance, agreement and diversity, an infinitely accurate system that raises bewilderment and astonishingly, which require us to think about the creativity of the creator of this beauty! Is there a way to define "Beauty" and to control its concept and familiarity with its requirements? What is its relationship to aesthetics?

This is what we will try to find out in this article, the concept of beauty in terms of linguistic and idiomatic terms in general and its overlapping with some terms, and to reveal its relationship to aesthetics.

**Keywords:** Beauty, Aesthetics, the beautiful, artwork, artistic experience.

## 1. مقدمة:

لا شك أن موضوع الجمال والجمالية من الموضوعات الشائكة والمتشعبة التي كانت ولا تزال مثار تساؤل الفلاسفة والنقاد منذ القدم، حيث اختلفت الآراء، وتباينت الأفكار حوله، لأنه يرتبط بالإنسان، وبالوجود كله، والإحساس به، والميل إلى مسألة فطرية متجددة في أعماق النفس البشرية، ربطه البعض باللذة والمتعة، والبعض الآخر بالمنفعة والفائدة، واحتوته الجمالية حتى صار ميدانا لها تدرسه من عدة جوانب، فالصلة قائمة بين الجمال والجمالية والتداخل موجود بينهما، ولا بدّ من ضبط المصطلحات، فما مفهوم الجمال؟ وما مفهوم الجمالية؟ وكيف يمكن للجمال أن يصبح ميدانا للجمالية؟

تلك هي الإشكالية التي نحاول من خلال بحثنا الإجابة عنها، وإزاحة بعض الضبابية عن مفهومي الجمال والجمالية في سياقهما التاريخي معتمدين على المنهج الوصفي والتاريخي والتحليلي في التعريف اللغوي والاصطلاحي وفي إضاءة بعض الجوانب المتعلقة بالجمال والجمالية.

## 1. مفهوم الجمال:

## أ- لغة:

- جُمِلَ الشيء: إذا جمعه بعد تفرّق
- أجمَل: اعتدل واستقام
- الجميل: طائر، قال سيبويه: الجميل البلبل لا يتكلّم به إلا مصعراً، فإذا جمعوها قالوا: جملان وفي التهذيب يجمع الجميل على الجملان.

**والجمال:** الحُسن يكون في الخلق والخلق، لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾<sup>1</sup>، أي بهاء وحسن وفي الحديث: (إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ)<sup>2</sup>. أي جميل الأفعال.

وقال سيبويه: الجمال رقة الحُسن.

وقال الراغب: الجمال الحسن الكثير.

والجملاء الجميلة من النساء وقيل:

فهي جملاء كبدر طالع بدت الخلق جميعاً بالجمال

وقال ابن عبّاد: الجملاء (التامة الجسم من كلّ حيوان).

وتجمل الرجل: تزوّج<sup>3</sup>.

والجمال بالضّم والتشديد أجمل من الجميل، وجملة: أي زينة، والتجمل: تكلف الجميل.

والجميل: المليح، البهي، الحسن الذي يسرّ حين النظر إليه. ونقول ناقة جملاء: أي ناقة حسنة<sup>4</sup>.

وتجمع المعاجم على أنّ الجمال مصدر يدلّ على الحسن والزينة والبهاء.

## ب- اصطلاحا:

إنّ البحث في مفهوم الجمال يطرح إشكالية تراكم الآراء، وتعدّد المواقف، واختلاف النظريات، باختلاف أصحابها، وتباين منابعهم الفكرية، لذا يتعدّد الحصول على تعريف شامل للجمال.

حبّ الجمال فطرة فطر الله نفوس البشر عليها، ولولاه لكانت الحياة عديمة المعنى. فالإنسان منذ مجيئه إلى الدّنيا تهديه فطرته إلى التعلّق بكلّ ما هو جميل، والجميل هو كلّ ما ترتاح إليه النّفس، وتحسّ به الوجدان، ولكنّه إحساس متفاوت، تفاوت ملكة "الدّوق" عند الأشخاص: "وبالتالي، فالجمال صفة متحقّقة في الأشياء، وسمة بارزة من سمات هذا الوجود، تحسّه النّفوس وتدرکه بدهاءة"<sup>5</sup>.

والجمال يتجلّى في الأشياء بنسب متباينة، بحكم حركته التّشبيطة، وتحوّله الدائم فهو "ظاهرة ديناميكية متطوّرة، وتقديره يختلف من شخص إلى آخر، ومن لحظة إلى أخرى..."<sup>6</sup>.

إذ لا يمكن أن يوحد الشّعور بالجمال في ذات اللّحظة، فما يسرّ النّفس الآن قد يجرّنها فيما بعد. وهذا التغيّر والتلوّن من شأنه أن يجعل تعريف الجمال محور اهتمام ومركز اختلاف.

يعرّف أفلاطون الجمال: "بأنّه ظاهرة موضوعية، لها وجودها، سواء يشعر بها لإنسان، أم لم يشعر، فهو مجموعة خصائص إذ توقّرت في الجميل عدّ جميلا، وإذا امتنعت عن الشيء لا يعتبر جميلا، وهكذا تتفاوت نسبة الجمال في الشيء بحسب مدى اشتراكه في مثال الجمال الخالد"<sup>7</sup>.

يستمدّ الجمال -حسب رأي أفلاطون- من الوحي والإلهام، فهو يربط عالم الواقع بعالم المثل، كما يشترط فيه مقاييس علمية موضوعية محضة، "وأنّ الجميل يجب أن يحكم بقوانين الفن، والفنّ تقليد للطبيعة، وإبراز الأشياء المحسوسة، وهذه الأشياء المحسوسة، صور للمثل. فالفنّ صورة لصورة"<sup>8</sup>.

ويُفهم من هذا أنّ أفلاطون يُخضع الفنّ للمثالية والأخلاق، ويبعده عن العقل، ولكنّ تلميذه "أرسطو" يختلف عنه في "أنّه يجعل من العقل مقياسا للجمال، ويجعل من الجمال مبدأ منظّما في الفنّ"<sup>9</sup>.

أمّا أفلوطين فيوحد بين الخير والجمال ويشير: "أنّ الواحد المطلق خيرّ قبل كلّ شيء، وهو جميل لأنّه خير، فالخير هو المبدأ الأول الذي يصدر عنه الجمال"<sup>10</sup>.

وواضح جدّا، أن أفلوطين متأثر بالتّظرة الأفلاطونية التي تعتبر الجمال حقيقة علوية ميتافيزيقية تدرکہا الرّوح لا الحواس، غير أن الفنّ يمكنه أن يكتمل التّقص الموجود في الطّبيعة، أو يخلق الجديد خاصة "إذا تمتّع الفنّان بروح شقّافة تجعله يحسن محاكاة الطّبيعة، وبالتالي يقترب من إدراك الجمال المطلق"<sup>11</sup>.

ويعرّف اللاهوتيون، وعلى رأسهم "سنت أوغسطينوس، وتوما الأكويني"، الجمال على أنه: "يدخل السرور والبهجة في لّنفس عندما يرى، وهو مظهر متغيّر للجمال الأعلى الخالد، الله، الذي هو مصدر كلّ جمال، وما الطّبيعة إلّا وجه لّفنّه العظيم"<sup>12</sup>.

ويُقصد بهذا أنّ الجمال ذاتي يختصّ بالنفس، فهو موضوع ارتياح "يبعث السرور والغبطة بالمصدر الإلهي "الله" الذي يعدّ الجمال مظهر من مظاهره ويعتبره كروتشه "حدسا أو إدراكا فطريا أو إحساسا فطريا بالطبيعة، ولكنّه معرفة كذلك، تتبع من العقل والخيال معاً، ويتمّ إدراك مكنوناتها بملكة تتفاوت درجتها وقوّة إدراكها بيم بني البشر"<sup>13</sup>.

وأشار شارل لالو إلى أنّ: "الجمال إشباع منزع عن الغرض، هو لعب حرّ واتّفاق لملكاتنا، أي توافق بين خيالنا الحسيّ، وبين عقلنا"<sup>14</sup>.

وهذا التنزّه الجمالي كان قد نادى به كانط وعرفّ الجمال على أنّه: "بمّتع دون غاية ليردّ على الحسيين، ويمّتع دون مفهومات ليردّ على الفكريين، وكان يفرّق بين نوعين من الجمال: الجمال الحرّ والجمال بالتبعية"<sup>15</sup>.  
تبعاً لهذا، فإنّ الجمال إعجاب وتمّتع، وقيمته تتبع من جوهره، بعيداً عن الجانب الحسيّ والعقلي، ولكنّه في الحقيقة "تشارك في التقاطه والتأثر به عناصر الإدراك العقلي، والشعوري الباطني... التي من تفاعلها جميعاً تتكوّن شخصية الإنسان"<sup>16</sup>.

ويبقى الجمال ارتياح قلب، وذوق عقل، لأنّ العقل محلّ كل الملكات الفكرية، والقلب محلّ كل الانفعالات والتغيّرات الوجدانية. وقد ذهب البعض إلى ربط الجمال بالمنفعة واللذة والفائدة. وعبرّ عن ذلك سقراط، من قبل حين قال: "أنّ الشّيء يكون جيّداً ورائعاً إذا كان هذا الشّيء قد صنّع بشكل جيّد ليؤدّي الفائدة المتوخاة"<sup>17</sup>.

ورأى أرسطو "أنّ الفن الجميل هو الفن النّافع"<sup>18</sup>. على أنّ المنفعة عنده عملية التّطهير، ولكنّ الواقع غير ذلك، فالجمال صفة فريدة لا تتعلّق بأيّ مقصد أو غاية أو منفعة. "وإذا كان الموضوع نافعا أو ضرورياً على نحو ما، أو كان له تأثير علينا طريق أو بآخر بالألم أو المتعة، فإنّ هذا الموضوع يكون خارجاً من مجالات الموضوعات الجمالية"<sup>19</sup>.

هي دعوة صريحة إلى إبعاد الجمال عن الأخلاق والمنفعة... وكلّ القيم الأخرى، وخلقه جمالاً لذاته، غايته تكمن فيه وهذا ما ذهبت إليه مدرسة "الفن للفن".

كما أنّ الجمال غير المنفعة والرّغبة واللذة التي دعت إليها النظرية النّفسية وعلى رأسها فرويد Freud حيث قال: "أنّ الجمال هو الشّعور بتحقيق الرّغبة"<sup>20</sup>، ويقصد الرّغبة الجنسية، لأنّ الجمال إذا اقترن بوشائج، فإنه يفقد صفته الجمالية الحرّة، والأشياء الجميلة حقاً هي التي تستقلّ بجمالها عن أيّ هدف خيري أو قرينة خارجية.  
وعلى كلّ، فإنّ تعاريف الجمال تبقى متعدّدة ومتباينة، تعدّد وتباين الآراء والنّظريات، ولكن المتفق عليه أن: "الجمال هو التّناسق، أو الانسجام الذي يدركه العقل ويقدره الذوق"<sup>21</sup>. وهذا الانسجام والتّناسب والتّناسق يتطلّب التّأليف "إذ لا نحكم على جمال الكلمة المفردة ما لم نتعرّف على موقعها في الجمل، أو في العمل الأدبي من مسرحية أو قصيدة، وفي الموقف العام، أمّا هي في حدّ ذاتها، فلا ينبغي أن توصف بجمال أو قبح"<sup>22</sup>.

## 2. الجمالية (الاستطيقا):

لم تكن الجمالية وليدة اللحظة، ولم تُخلق من العدم وإنما لها جذور تأصلت في القدم، والتاريخ يشهد على ذلك، فلقد واكبت بداية ونهاية الفكر اليوناني رغم أنّ المصطلح بدا مختلفا عند الكثير من الأمم، وانتشرت في فرنسا منذ القرن الثامن عشر، وفي بريطانيا خلال القرن التاسع عشر على يد بيتر Petter، ويعلق الناقد جونسون Johnson بأنّ أعراض الجمالية كانت قد ظهرت سنة 1831<sup>23</sup>.

والجدير بالذكر أنّ الجمالية لم تكن معروفة بهذا المصطلح، بل ترجمت إلى الاستطيقا Esthétique وهو اللفظ الأكثر انتشارا، فقد أطلق في النصف الثاني من القرن الثامن عشر على يد باومجارتن "Boumgarten" في بحثه الذي نشره بعنوان "Meditationes philosophicae de nunnulis ad poéma pertinentibus".

بعد حصوله على شهادة الدكتوراه، وقد جعل الجمالية علما خاصا بالمعرفة الحسية، ثم تتابع ظهورها في كتاباته الأخرى، وقصد بها دراسة المدركات الحسية أو علم المعرفة البسيطة، ونظرية الفنون الجميلة، أو علم المعرفة الحسية، أو فنّ التفكير على نحو جميل، وفنّ التفكير الاستدلالي<sup>24</sup>.

هكذا اعتبر باومجارتن الاستطيقا أو علم المعرفة الحسية... ولكن لماذا الاستطيقا وليس الجمالية؟ رغم أن الجمالية أنسب لموضوع الجمال وأقرب، بل أحد مشتقاته.

إنّ باومجارتن يعي كلّ الوعي أنّ الاستطيقا لا تتسع اتساع الجمالية، فهذه أشمل وأعمّ من تلك، الاستطيقا لا تبحث في جمال الأشياء النسبي أو الجزئي، ولا في علاقتها، إنّما تقتصر على لون من ألوان المعرفة يكتسب بالإدراك الحسي<sup>25</sup>.

والمعروف أنّ الإغريق تحدّثوا عن الجمالية، دون أن يفصحوا عن اللفظ ذاته، لأنّ حديثهم كان عن الجمال المطلق الذي يحتوي على الطّباع الميتافيزيقي، ونادوا بالجمال، بل بالجماليات، إذ يمكن للجمال أن يكون ماديا أو مثاليا أو مفارقاً لأرض الواقع، ولكنّ الجمالية كما يعتقد باومجارتن أو الاستطيقا كما سمّاها، يجب أن تتخلّص من الميتافيزيقا، فهي مقتصرة فقط على لون من ألوان المعرفة يكتسب بالإدراك الحسي ويتناول كمال المعرفة الحسية مجرّدة عن أيّة فكرة، وهذا اللون هو الجمال، وهكذا فالجمال ذاته أصبح ميدانا للاستطيقا<sup>26</sup>.

أضف إلى ذلك، أنّ باومجارتن قد أقام حدّا فاصلا "بين المعرفة الحسية الغامضة أو الاستطيقا، والمعرفة العقلية الواضحة أو المنطق، فالحقيقة المنطقية تختلف عن الاستطيقا في أنّ الحقيقة الميتافيزيقية أو الموضوعية تتمثل

حيناً في العقل عندما تكون حقيقة منطقية بالمعنى الضيق، وحيناً فيما يشبه العقل وملكات الإدراك البسيطة عندما تكون إستيقاً<sup>27</sup>.

ونفهم من هذا أن باومجارتن يحاول أن يجرّر الفنّ من قيود البلاغة الكلاسيكية ذات المبنى المنطقي، ويؤسس علماً جديداً يبحث في جوهرية الفنّ وفي أسسه الجمالية، ومن ثمّ فإنّ المنطق عنده لا يهتم بالعقل والأخلاق بالأفعال، وتكثر الجمالية بالوجدان والعاطفة والأحاسيس<sup>28</sup>.

وهذا ما جعل المصطلح يختلط في اللغات الأوروبية بمصطلحات أخرى. كمصطلح "الشاعرية" أو "النظرية" أو "التجربة" أو "المنهج الجمالي" وفي هذا الصدد يقول علي جواد الطاهر: "لدينا إذن ثلاث كلمات أو أربع هي: شكلي، فني، جمالي، أسلوبي، صارت مصطلحات للدلالة على إضفاء الأهمية في النص الأدبي، على الجانب الشكلي الخارجي وتقليل أهمية المحتوى"<sup>29</sup>.

ولعلّ هذه المصطلحات توضّح أساس الاستيقا الذي هو الفن ذاته بعيداً عن كل القيم الأخرى، وهذا ما يقول به دولوز: "أن الأشياء في الفنّ تصبح منذ البداية مستقلة عن التّمودج، وسينظر إلى الأثر الفني بوصفه كينونة الحساسة ولا شيء غير هذا، لأنه موجود في ذاته"<sup>30</sup>.

وعلى هذا الأساس يختصّ الجميل بكلّ ما هو غامض، بالحياة الباطنية، بل بكلّ ما يشدّ النفس لأنّ مفهوم الجمال في النظرة الاستيقية خاضع لتقييم الذات. وهذا ما جعله يختلف عن المنطق، لا لشيء إلا أنّه تفكير صرف يقدر.

ولم يقف باومجارتن عند هذا الفرق، بل نجح وإلى حدّ بعيد في إبراز التباين بين الجميل والاستيقية، ذلك أنّ الجمال لا يعدّ مرادفاً للاستيق كما يخال للكثير، إنّما اعتبر الجمال ميداناً للاستيقاً<sup>31</sup> قد ترتبط به تارة، وقد تختلف عنه تارة أخرى، ولكن هل في ذلك الارتباط اهتمام بالقيمة الخلقية كما يعني بها الجمال؟ أو بعبارة أخرى، هل تخضع الاستيقية للأخلاق؟

للإجابة عن هذا السؤال لا بدّ من الوقوف عند الحدود التي تفصل الجميل عند الإغريق، وبين الاستيقية عند باومجارتن وأتباعه.

تكشف بحوث الإغريق في ميدان الجمال عن مدى ارتباط الجميل بالأخلاق، فقد ربط سقراط الجمال بالخير، ومن بعده أفلاطون وأرسطو، بينما تنكّر الألمان لكلّ القيم الأخلاقية من الاستيقية، واعتبروها "علم المعرفة الحسية، غايتها كمال المعرفة الحسية، وهذا هو الجمال، ونقص المعرفة الحسية هو القبح، والأشياء بهذا المعنى يمكن التفكير فيها بطريقة جميلة، وأيضاً فإنّ الأشياء الجميلة يمكن التفكير فيها بصورة قبيحة"<sup>32</sup>.

ومن هنا، فإنّ علاقة الاستيقية بالذاتية قويّة جداً، وأنّ مفهوم الجمال الحقّ نابع من الذات، غير مرتبط بالخير والحقّ. ولكنّ الذاتية هذه تشترط مبدأ "اللذة": "لأنّ مشاعر الجمال الحرّة، تلك التي لها علاقة باللذة، بعيدة كلّ البعد عن المفاهيم الأخلاقية"<sup>33</sup>.

وإذا ربط هؤلاء، باومجارتن وأتباعه الاستطيقا، باللذة والمتعة، ورغبوا عن الأخلاق والقيم الفاضلة معتبرين الشعر لا غاية له سوى الجانب الشكلي أو الفني، فكيف نفسّر الأدب الأخلاقي والنثر الاجتماعي والشعر التعليمي؟ وهل نكتفي بالشكل الجمالي للأدب (الشعر) دون المضمون؟

لا شك أنّ العمل الأدبي - كيفما كان - هيكل أو جسد له شكل ومضمون، يتصل بالواقع، وتربطه وشائج بالحياة الأخلاقية والسياسية والجمالية (الفنية)، فهو كلّ متكامل، وإن لم تظهر في الشكل، فإنّها قائمة في المضمون - بلا شك - لأنّ الفنّ نسق رمزي يلخص تجربة إنسانية، يتفاعل فيها الشكل والمضمون. وهذا التفاعل ينتج عنه ما يسمى بالتجربة الجمالية "المشاهد خلال هذه التجربة لا يملك وعيا بذاته، كذات منفصلة عما يراه ويسمعه، وهنا يحدث اندماج بين الذات والموضوع في كلّ واحد"<sup>34</sup>.

ويؤكّد هذا الرأي الفيلسوف ابن نبي حيث ينظر "إلى الجمال من الوجهة النفسية والاجتماعية أي إلى ذلك الجانب النفسي المستوحى من منظر أو شكل أو رائحة... هذه الحركات أو الأشكال إما تؤدّي إلى إحساسات بالقيمة الجمالية، أو إلى سماحة في السلوك إذا كان ما توحى به مستقبحا، وهذا يؤدي بالإنسان إلى سلوك عملي يتوخى فيه الإحسان، والدقة، والإتقان، كما يتوخّى كلّ سلوك محبّب إلى النفس وكريم في العادات"<sup>35</sup>.

يتبيّن من هذا، أن قيمة الجمال عنده تكمن بما يوحيه في المجتمع من ثراء في الذوق، بل إنّه يشكّل فصلا مهماً من فصول الثقافة، وهو الإطار الذي تتكوّن فيه أيّة حضارة، حيث يحاول ابن نبي من خلال نظريته هذه أن يصل إلى الجمال الثقافي بحكم نزعتة الحضارية، ولكنّه يولي اهتماماً للجانب النفسي والاجتماعي وحتى الأخلاقي، لأنّ لا بدّ منها في تكوين حضارة تنشئ أجيالاً وتكوّن عقليات مختلفة ومتباينة. وتبقى النزعة الجمالية عنده، والذوق الجمالي قائمتين في تحديد اتجاه الحضارة في التاريخ، وبالتالي ينعكسان على سلوك الفرد والمجتمع.

ولكنّ الغاية التي ينشدها الجماليون، هي أن يقوم الأثر الأدبي لذاته وفي ذاته، بعيداً عن كلّ العلاقات الأخرى. وهذا هو محور التساؤل، ومركز اختلاف الكثير من النظريات إذ هناك من آمن بالشكل، فاعتبره معياراً للجمال، وهناك من خالف الرأى، فاهتمّ بالموضوع أو المضمون، كونه موضع السرّ الجمالي، ولكن لنكتشف سرّ تعصّبهم لا بدّ أن نقف عند الرأىين، ونستنتج ما هو منطقي وأرجح.

يرى أتباع النظرية الشكلية "كشلوفسكي وبروب"<sup>36</sup> أن الجمالية يقتصر اهتمامها على المظهر أو الإطار الخارجي، فهم يركّزون على الشكل. وذهب هذا المذهب العرب قديمهم وحديثهم، منهم، الدكتور محمد زكي العشماوي الذي بيّن أنّ موضوع الشعر أيّاً كان نوعه هو في أصله شيء خارج عن الذات. ويؤيّد الدكتور مصطفى ناصف، حيث يقول: "إنّ الشكل يحمل من المعنى والقيمة مالا يستطيع كشفه من خلال مظهر آخر من مظاهر النشاط... وإذا تحدّث الناقد عن معنى أدبي دون الرجوع إلى الشكل، فهو يخطئ الطريق إليه، ويحوّل العمل الأدبي إلى مادّة إخبارية"<sup>37</sup>.

يركز هاهنا، الدكتور محمد زكي العشماوي، ومصطفى ناصف على الشكل ويؤكدان على أهميته في العمل الأدبي، ولكنهما لا ينكران أبداً قيمة المضمون لأنّ العمل الأدبي كيفما كان يتفاعل فيه الشكل والمضمون، فيتوحدان في شكل عمل فني متكامل تنصهر فيه جميع العناصر الداخلية والخارجية. ورغم تعصّب أهل الشكل لمبدئهم، وتبرير مواقفهم بشئى البراهين، إلا أنّ نظرية المضمون كانت أوضح بدليل أنّهم اعتبروا العمل الأدبي إنّما يُعدّ بمضمونه وأفكاره حتى يصبح عملاً ناجحاً وأكثر جمالاً لا مجرد زخرفة فارغة.

ونظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني توضح حقيقة المعنى وأهمية النظم "فالأديب لا يهتم في الحقيقة بألفاظه، وإنما يهتم بمعانيه، والشكل الخارجي مستقلاً عن المحتوى لا يخلق مواقف جمالية"<sup>38</sup>. وتفسير هذا أنّ عبد القاهر الجرجاني أراد من خلال نظريته أن يكون العمل الأدبي بناء لغوياً، قائماً بذاته، وذا غاية فنية، وعن النظم يقول: "لا أن تتوحى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيباً ونظماً، وأنك تتوحى الترتيب في المعاني، وتعمل الفكرة هناك. فإذا تمّ لك ذلك أتت الألفاظ وقفوت بما آثراها"<sup>39</sup>. وهكذا يتضح أنّ الجمالية تقوم على الشكل والمضمون، إذ يستحيل الفصل بينهما، لأن العمل الأدبي عبارة عن كائن حي، لا نستطيع بتر أحد أجزائه، وإلاّ أصبح مشوهاً وناقصاً. فلا الشكل يمكن أن يستقلّ ولا المضمون أن ينفرد، إذ لكلّ منهما وزن وقيمة في العمل الأدبي، فهما الوسيلة والغاية في اللحظة ذاتها. ومن الذين رفضوا الفصل بين اللفظ والمضمون ابن الأثير حيث عبّر بقوله: وليس لقائل ممّا أن يقول: "لا لفظ إلاّ بالمعنى، فكيف فصلت أنت بين اللفظ والمعنى؟ فإن لم أفصل بينهما، وإنما خصصت اللفظ بصفة هي له، والمعنى يجيء فيه ضمناً وتبعاً"<sup>40</sup>.

الواضح أن ابن الأثير ينفي الفصل بين اللفظ والمعنى، بل يجعل منهما ثنائية تربطهما علاقة تلازمية، هذه العلاقة أشار إليها كروتشه، فبيّن "أن الفكرة لا تكون بالنسبة إلينا فكرة، إلاّ إذا أمكن أن تصاغ بألفاظ..."<sup>41</sup>. من كلّ هذا نستنتج أنّ الجمالية على قدر تعصّبها للشكل فإنّها تحترم الموضوع كذلك، وتعطيه قيمته المستحقّة، وتؤكد على أنّ الفنان الحقّ هو الذي يحسن استخدام أدواته وأفكاره، والألحان الموسيقية مثلاً لا قيمة لها إلاّ إذا انتظمت في قالب محكم، يحقق الإثارة بالتوافق بين المضمون المنطقي، والشكل الفني. وهذا الانسجام الذي يكون بين الشكل والمضمون يحدث ما يسمّى بالتناغم الجمالي أو التجربة الجمالية، حيث يستجيب الإنسان للأشكال الطبيعية الموجودة أمام حواسه فيتأثر ويؤثر. وعلى هذا الأساس أصبح علم الجمال، الذي ظهر عند انتهاء البلاغة الكلاسيكية "لا يهتم بتحليل العمل الفني أو تجزئته أو نقده أو الكشف عن طبيعته بنائه، بل ينفذ إلى صميم تعبيره الباطني وإدراك ما فيه من عمق"<sup>42</sup>.

وعلى كلّ، فإنّ الجمالية تحاول أن تنفذ إلى باطن العمل الفني، فتكشف عن خصائصه الفنية، ولذلك كانت علاقتها بالتقد علاقة تكامل وتلازم، كلّ منهما بحاجة إلى الآخر لخدمة الإبداع الأدبي، فالتقد يتناول

جزئيات العمل الأدبي ويستغرق تفاصيل دقيقة لها علاقة بالتركيب والصورة والإيقاع... والإستطيقا تهتم بالقوانين العامة لهذا العمل.

#### 4. خاتمة:

نخلص في النهاية أن الجمالية "مطلب أساسي لهوية الفن، وهي منهج عام أو رؤية إبداعية ونقدية، تتحرك في إطارها جميع المناحي النقدية من شكلانية وبنوية وأسلوبية سواء في العالم العربي أو الغربي". ويمكن أن نعتبر "علم الجمال" من أكثر العلوم الإنسانية القابلة للحوار، والأكثر انفتاحاً على العلوم النقدية والمناهج النقدية والتي استطاعت أن توحد بين الثنائي والمتضاد والمتقابل بأشكاله المختلفة، ضمن البنى الفنية المتجاوزة في النص. وهكذا تكون الجمالية قد بلغت قيمة تأثيرها خاصة في نقد الفيلسوف الإيطالي بندتو كروتشه الذي رأى في وصف الخير والشرّ جمالاً وفي الشكل والمضمون وحدة فنية حيّة. ومن أبرز النتائج المتوصل إليها:

- إن ظهور الجمال يرتبط بوجود الإنسان، وتطوره مرهون بتطور الذات الإنسانية، فهو ظاهرة تتبع من أعماق الفنان، ولكنه حقيقة موضوعية كائنة في العالم الخارجي، وبهذا يصبح الجمال معرفة يتقاسمها جانبي الذاتية والموضوعية وإن كانت نسبيتين إذ يُدرك الجمال بالعقل والوجدان معا.
- الجمال ارتياح وسرور يراه البعض مرتبطاً بالنفس مستقلاً عن أية غاية أخرى، ويخضعه البعض الآخر إلى مجموعة من القيم، ولكنه في الحقيقة انسجام وتناسق أو تأليف قائم على أسس أخلاقية وقواعد سلوكية.
- الجمالية علم يبحث عن معنى الجمال من حيث مفهومه وماهيته ومقاييسه.

وبعد هذا كله، فإنه من المتعين العناية بقيمة الجمال وتربية أفراد المجتمع عليها، كما أن دراسة علم الجمال هي دراسة لأرقى أعمال الإنسان في أسمى معانيها الفكرية والعاطفية.

ومن بين التوصيات التي نوصي بها:

- تناول مفهوم الجمال بشموله، واختلافاته، وكل مستويات المعرفة.
- دعوة إلى التأمل والاهتمام بالدراسات الجمالية من أجل الارتقاء بالإنسان، والسمو بالمجتمع.
- الحرص على التربية الجمالية وتنمية الذوق الجمالي.

#### 5. الهوامش:

<sup>1</sup> سورة النحل، الآية 6.

<sup>2</sup> صحيح مسلم، ج 1، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص 93.

<sup>3</sup> محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ج 7، مادة (جمل)، دار مكتبة الحياة، بيروت، ص 263، 264.

- 4 محمد بن كرم الأنصاري، لسان العرب، ج14، مادة (جمل)، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ص98.
- 5 محمد قطب، منهج الفن الإسلامي، دار الشروق، بيروت، ط6، 1983، ص85.
- 6 علي شلق، الفن والجمال، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ط1، 1982، ص50.
- 7 عز الدين إسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1951، ص68.
- 8 علي شلق، الفن والجمال، ص51.
- 9 عز الدين إسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي، ص37.
- 10 المرجع نفسه، ص39.
- 11 عز الدين إسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي، ص41.
- 12 علي شلق، الفن والجمال، ص53.
- 13 بندتو كروتشيه، علم الجمال، تر: نزيه الحكيم، المطبعة الهاشمية، 1963، ص156.
- 14 عز الدين إسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي، ص50.
- 15 المرجع نفسه، ص55.
- 16 ميشال عاصي، الفن والأدب، مؤسسة نوفل، بيروت، ط3، 1980، ص68.
- 17 نيكون أوفيسا، موجز النظريات الجمالية، تر: باسم السقا، دار الفرائي، بيروت، ط2، 1979، ص17.
- 18 هلال محمد غنيمي، النقد الأدبي الحديث، دار العودة، بيروت، 1993، ص58.
- 19 محمود الربيعي، في نقد الشعر، دار المعارف، مصر، ط3، دت، ص48.
- 20 علي شلق، الفن والجمال، ص53.
- 21 شارل لالو، مبادئ علم الجمال، تح: خليل شظا، دار دمشق للطباعة، 1982، ص65.
- 22 ميشال عاصي، الفن والأدب، ص71.
- 23 المرجع السابق، ص28.
- 24 ينظر، عز الدين إسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي، ص15.
- 25 عز الدين إسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي، ص18.
- 26 المرجع نفسه، ص22.
- 27 المرجع نفسه، ص18.
- 28 شارل لالو، مبادئ علم الجمال، ص58.
- 29 علي جواد الطاهر، مقدمة في النقد الأدبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1979، ص434.
- 30 Deleuze et Guattari, Ceres éditions « Ce Que la Philosophie Qu'est ? » Tunis, 1993, p183.
- 31 ينظر، عز الدين إسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي، ص16.
- 32 عز الدين إسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي، ص54.
- 33 المرجع نفسه، ص56.
- 34 شكري عزيز الماضي، في نظرية الأدب، دار البعث، قسنطينة، 1984، ص70.
- 35 مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، تح: عمر مسقاوي، دار الفكر، دمشق، 1399-1979، ص79.
- 36 محمد مرتاض، مفاهيم جمالية في الشعر العربي القديم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1998، ص29.
- 37 مصطفى ناصف، دراسة الأدب العربي، ص103. نقلا عن النقد الجمالي عند مصطفى ناصف، كريب رمضان، شهادة ماجستير، 1993-1994، ص63.
- 38 عز الدين إسماعيل، الأسس الجمالية، ص168.
- 39 الإمام عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تع: محمود شاكر، دار المدني، القاهرة، ط3، 1413هـ-1992م، ص54.

- <sup>40</sup> ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج1، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، 1996، ص82.
- <sup>41</sup> محمد زكي العشماوي، فلسفة الجمال في الفكر المعاصر، دار النهضة، بيروت، 1980، ص166.
- <sup>42</sup> عز الدين إسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي، ص365.

## 6. قائمة المراجع:

- القرآن الكريم

1. ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج1، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، 1996.
2. الإمام عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تع: محمود شاكر، دار المدني، القاهرة، ط3، 1413هـ-1992م.
3. بندقوتشيه، علم الجمال، تر: نزيه الحكيم، المطبعة الهاشمية، 1963.
4. شارل لالو، مبادئ علم الجمال، تح: خليل شظا، دار دمشق للطباعة، 1982.
5. شكري عزيز الماضي، في نظرية الأدب، دار البعث، قسنطينة، 1984.
6. صحيح مسلم، ج1، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
7. عز الدين إسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1951.
8. علي جواد الطاهر، مقدمة في النقد الأدبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1979.
9. علي شلق، الفن والجمال، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ط1، 1982.
10. مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، تح: عمر مسقاوي، دار الفكر، دمشق، 1399-1979.
11. محمد بن كرم الأنصاري، لسان العرب، ج14، مادة (جمل)، الدار المصرية للتأليف والترجمة.
12. محمد زكي العشماوي، فلسفة الجمال في الفكر المعاصر، دار النهضة، بيروت، 1980.
13. محمد قطب، منهج الفن الإسلامي، دار الشروق، بيروت، ط6، 1983.
14. محمد مرتاض، مفاهيم جمالية في الشعر العربي القديم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1998.
15. محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ج7، مادة (جمل)، دار مكتبة الحياة، بيروت.
16. محمود الربيعي، في نقد الشعر، دار المعارف، مصر، ط3، دت.
17. مصطفى ناصف، دراسة الأدب العربي، ص103. نقلا عن النقد الجمالي عند مصطفى ناصف، كريب رمضان، شهادة ماجستير، 1993-1994.
18. ميشال عاصي، الفن والأدب، مؤسسة نوفل، بيروت، ط3، 1980.
19. نيكون أوفيسا، موجز النظريات الجمالية، تر: باسم السقا، دار الفرابي، بيروت، ط2، 1979.
20. هلال محمد غنيمي، النقد الأدبي الحديث، دار العودة، بيروت، 1993.

## قائمة المصادر بالأجنبية:

- Ceres éditions « Ce Que la Philosophie Qu'est ? » Deleuze et Guattari, Tunis, 1993.